الاتجاهات النقدية في القرن الثالث

ستمر طقس الطلل والعمود في الشعر والشعراء مع ابن قتيبة ، إذا يبدو تصوره رغم تقبله للمحدث بوصفه توفيقيا تصورا قائما على مبدأ المشاكلة (الذي ينظر إلى النص على أنه انعكاس لعلاقات كانت قائمة ومشتهرة عقليا وعرفيا قبل نشوء النص . عبد الله محمد الغذامي ،المشاكلة والاختلاف ، قراءة في النظرية النقدية وبحث في الشبيه المختلف، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،ط1 س.(.67 ,1994

إذ يحظر ابن قتيبة على المحدثين من الشعراء أن يخرجوا عن مذهب القدماء في قوله :(وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل أو يصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجواري ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن والطوامي ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ،لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة . الشعر والشعراء ، دار الثقافة بيروت 1980. ص.(22

إذ يتضح جليا أن قضية البقاء في مملكة الفحول تقتضي الوقوف على تقاليد القصيدة الالكلاسيكية التي أنتجها الأولون ؛(عبر مقدمات وانتقالات مقننة ،وهي ذكر الديار والدمن والآثار والبكاء والشكوى ومخاطبة الربع ، واستيقاف الرفيق ،ليكون ذلك مدخلا لذكر أهلها الظاعنين ،ثم وصل ذلك بالنسيب ،ثم ذكر الإرتحال ومايرتبط به من مكابدة العناء والنصب وإنضاء الراحلة ، ثم الإنتقال الى المديح .مسلم حسب حسين ، الشعرية العربية أصولها ومفاهيمها واتجاهاتها ،منشورات ضفاف ط١ ردمك 1913 ص.(.117

فرغم موقف ابن قتيبة التوفيقي الذي بني على الإعتراف في قضية القديم والمحدث في مقامات مغايرة حين يتحدث عن الشعراء المحدثين إذ يقول :(ولانظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ،بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظه ،ووفرت عليه حقه. الشعر والشعراء .المرجع السابق ص ١٠-١١).فإن أيديولوجية الارتباط بالهوية الفكرية للنموذج الشعري القديم ظلت تنظم المعرفة والفكر العربيين ؛(فالشاعر المجيد من سلك هذه الأقسام ، فلم يجعل واحدا منها اغلب على الشعر .المرجع السابق ج١ص.(.21

نلاحظ أن المعرفة تنتظم في النظرية الشعرية العربية وفق معايير ثابتة تتلخص في المعنى الواحد والهوية الثقافية الواحدة /معايير عمود الشعر :(الشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب

يقصد ابن قتيبة بالأساليب طريقة الأولين ومنهجهم في قول الشعر والتي يمكن تصنيفها ضمن الثوابت ، والثابت في إطار الثقافة العربية هو الفكر الذي ينهض على النص ، ويتخذ من ثباته حجة لثباته هو ، فهما وتقويما ،ويفرض نفسه بوصفه المعنى الوحيد الصحيح لهذا النص ، وبوصفه استنادا إلى ذلك سلطة معرفية .أدونيس ،الثابت والمتحول بحث في الإبداع والإتباع عند العرب ج١ دار الساقي ط7 س 1994 ص.(13.

يشكل الثبات والمشاكلة أهم معوقات الحداثة الشعرية العربية ، فأساليب الأولين هي السلطة المعرفية الوحيدة التي تنتج النص وتبني جمالياته

..

يأت أبو العباس المبرد) ٢١٠- ٢٨٦ (ليكون (أسرع إلى تبني الشعر المحدث ومنحه شيئا كثيرا من عطفه واعتماده أصلا من أصوله في تدريسه لطلابه ، وأفراده بالإختيار ،فهو لم يكتف بإيراد نماذج منه في كتبه العامة كالكامل والفاضل ،وإنما خصص كتاب الروضة لأشعار المحدثين . إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ، دار الشروق للنشر والتوزيع الأردن ط٢ 1993.ص.(78

هل هي بداية التصور النظري للمختلف ،أم هي مشاكلة في ثوب آخر ، أحقا يمكن للعمود الشعري العربي المتمثل في مجموعة من العناصر البلاغية بحدودها الاصطلاحية أن يتنازل للنصوصية بمختلف جمالياتها وأن يقبل بحضورها المكثف..؟

هل يمكن للمختلف أن يكون بديلا أو موازيا لعلاقات كانت قائمة ومستقرة عرفيا وعقليا قبل نشوء النص ؟

يقول المبرد :(هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة يحتاج إليها للتمثل ،لأنها أشكل بالدهر ،يستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب.أبو العباس المبرد ،الكامل ج2 تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ،القاهرة 1952 ص.(13

يقوم العمود على المشاكلة لا على الاختلاف هذا مايوضحه قول المبرد ؛فأشعار المولدين لا تصح أن تكون نصا موازيا ، بل هي للتمثل لاغير ، يستعار منها للتعلم ،فهي انعكاس لفكر مختلف منبوذ عقليا وعرفيا.

*العمود هو طريقة الأولين من الفحول في قول الشعر

يعد الجاحظ من أهم الرواة النقاد ممن ألموا بالنقد في ق٣، نظرا لسعة ثقافته التي تظهر في مدونه الحيوان والبيان والتبيين خاصة ،فهو كما يقول إحسان عباس (من خير من يحسنون تأسيس النقد على أصول نظرية وتطبيقية .إحسان عباس ،المرجع السابق.(83

يبدو الجاحظ في قضية القديم والمحدث الأكثر انفتاحا ومرد ذلك ثقافته المنفتحة على الآخر ، إذ يقول : وقد رأيت أناسا يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا في رواية للشعر غير بصير بجوهر مايروى .الجاحظ كتاب الحيوان ،تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ،القاهرة 1938-1945،ص.(130

وفي موضع آخر عن أبي نواس يقول :(وإتأملت شعره فضلته إلا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم في شيئ ، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل مادمت مغلوبا .(الحيوان ص.(29

تعد الغلبة نظير المشاكلة ، إذ تدور في مدار النص المهيمن /العمود الثابت ، وهو نص الأوائل المطبوع على مذهب على مذهبهم وطريقتهم.يضطرب الجاحظ هو الآخر رغم موقفه التوفيقي وينحرف عن مبدأ المختلف ،حين يتحدث عن ضرورة اجتماع العناصر الثلاثة (الغريزة والبلد والعرق) و(إنما ذلك _أي قول الشعر _عن قدر ماقسم الله لهم من الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق .1-الجاحظ ، الحيوان ج4 ص.(.381

وإن كان هذا في باب مناقشته لابن سلام في موضوع كثرة الشعر بالحروب ،فقد ذهب مع ذلك إلى أن العرق العربي سواء أكان عربيا في الحاضرة أو أعرابيا في البادية أشعر من العرق المولد الذي يعيش في مدينة أو قرية ، كما يتضح موقفه العرقي في حديثه عن المولد الذي (قد يجيئ ، بأبيات تلحق بشعر أهل البدو إذا استعد بنشاطه وجمع باله ولكن إذا استرسل في القول انحلت قوته واضطرب كلامه .الجاحظ ،السابق ص132.الجاحظ ، السابق ص.(132

يبدو جليا أن مسألة التعصب للعرق هي التينة التي تزاحم مفهوم المختلف في الفكر العربي ، تعيق الإبداع وإعادة بناء النص بمعايير جمالية جديدة.

مما جعل الإبداع نظاما انضباطيا وواقعا لغويا محكما مسبقا ينبني فيه النص وفق نمذجة محاكية مغلوبة بأعراف لغوية وبلاغية.

تستمر سردية المشاكلة في النص النقدي العربي مع عبدالله بن المعتز 296

ه رغم ايمانه بالنصوصية ،فقد كان خير من آمن بأن (أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه. ابن المعتز ،الطبقات ص.(.28

فقد قام فكره على مبدأ التعدد والتحول في الذوق إذ يقول :(ومما يستحسن من شعره وإن كان كله حسنا .ابن المعتز ، السابق 28.)،كما قال في شعر أبي تمام (ومما يستملح من شعره وشعره كله حسن .ابن المعتز ،السابق ص.(284

إذ يبدو في تعامله مع الشعر المحدث تجاوزا لأيديولوجية المطابقة التي هيمنت بشكل واضح، فقد تكررت مثل تلك الأمثلة في كتابه ، فهو بهذا المظهر تحقق له صفة الناقد العادل على حد تعبير إحسان عباس (1)..المرجع السابق ص.105

غير أن ابن المعتز لاينحرف عن مبدأ المشاكلة حين أكد أن البديع لم يكن بدعا مستحدثا ، وإنما كان الفضل فيه للقدماء ، فالبديع جزء من الموروث الكبير..

تتضح أيديولوجية أبو العباس عبدالله في رفضه لبديع أبي تمام وغيره من الشعراء المحدثين ، إذ رأى أنه إسراف وعلى غير طريقة الأولين ، إذ (تقوم الإتباعية هنا على الإيمان بأولية ثابتة ، كاملة ومطلقة) رغم أن مؤلف ابن المعتز يعد أول مؤلف علمي التزم فيه ابن المعتز المصطلح.

ظلت إشكالية الإ نتماء إلى القديم قائمة إلى غاية القرن الرابع مع ابن طباطبا.

استراتيجيات التحليل المنهجي للنص.

يمكننا أن نتوقف عند مدونتي ابن طباطبا وهي عيار الشعر والروضة ، المتوفي سنة ثلاثمائة واثنتي وعشرين من الهجرة ،فهو إذا قد عاش في القرنين الثالث وبداية القرن الرابع ، وإن كان على منهج نقاد القرن الثالث في تقبل المحدث إلا أن الشعر عنده كما يقول ،(ينبغي أن يكون صحيح اللغة سالما من اللحن والأخطاء اللغوية ،فقد كثر اللحن والخطأ في شعر المحدثين ،وتعقبه علماء اللغة ،وأخذوهم به وشككوا في قيمة كل شعر المحدثين .ابن طباطبا عيار الشعر ص.(42-41

يبدو جليا من قوله أن(اتباع السنة أو الموروث هو معتمد ابن طباطبا في النقد ، وهو على تصنيفه في هذه الإتباعية ينفذ إلى أغوار عميقة توضح أنه لا يرى الشعر شيئا منفصلا عن البيئة والمثل الأخلاقية ،وإن لم يستطع أن يطبق على معاصريه قانون تغيير البيئات والأزمنة . إحسان عباس المرجع السابق ص 122.)

فرغم مرجعيات ابن طباطبا المتعددة وانفتاحه على المحدث ،يظل هاجس المشاكلة والشبيه مهيمنا على عناصر الشعرية العربية مستبدا بها ،اذ يتضح ذلك جليا في قوله :(والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم

أشد منها على من كان قبلهم لأنهم قد سبقوا إلى كل كل معنى بديع ولفظ فصيح وحيلة لطيفة وخلابة ساحرة ، فإن أتوا بما يقصر من معاني أؤلئك ولايربي عليها ،لم يتلق بالقبول وكان كالمطروح المملول . ابن طباطبا ، عيار الشعر ص.(79

فهو في هذا المقام لا يختلف عن الجاحظ الذي يحدد الفرق بين الأعرابي والمحدث الذي لابد له أن يستعد بنشاطه ويجمع باله حتى لا يضطرب كلامه

يعد المشهد النقدي مع ابن طباطبا عند نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع متصلا منهجيا وأيديولوجيا برؤى نقاد القرن الثالث الهجري ، إذ لا يمكننا الحديث عن تصور منهجيا للنقد إلا مع كتاب الموازنة للآمدي ، فقد تداخل النص النقدي قبل مدون الآمدي بما هو بلاغي حد الارتباك مما يجعلنا نجزم أن أول كتاب خالص للنقد توفرت شروطه في كتاب الموازنة بين الطائيين.